وسائل تعزيز القوة الإنجازية في الحوار القرآني
مقاربة تداولية

د٠ عزة علي الغامدي (*)

المقدمة :

لما كانت التداولية تجيب عن أسئلة من قبيل: كيف نقول – في مرحلة الإنتاج– شيئًا ونقصد به شيئًا آخر؟ أو كيف نتجاوز – في مرحلة الفهم والتأويل– المعنى الحرفي (معاني الجمل) إلى المعنى الضمني (مقاصد المتكلم) ضمن المعطيات السياقية؟ فإنه لم يكن من المستغرب أن أولت اهتمامًا كبيرًا بأفعال الكلام التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالمقاصد والسياق وتأثيرهما في عمليتي إنتاج الخطاب وتأويله، حتى عُرفت التداولية بأنها دراسة أفعال الكلام، أو دراسة قصد المتحدث، ولم يكن من المستغرب أيضًا أن ارتبطت الأفعال الكلامية بنظرية الحجاج، ذلك أن الفعل الكلامي بقوته الإنجازية وفعله التأثيري يحمل أبعادًا حجاجية ترمي إلى تغيير مواقف المتلقي أو تعديل سلوكه أو حتى تضليله وتثبيطه، وبذلك "انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من داخل نظرية الأفعال اللغوية".(١)

وعامة فقد أضحت نظرية الفعل الكلامي – التي أرسى دعائمها أوستين وسيرل – بمكوناته الثلاثة: فعل القول، والفعل المتضمن في القول (الفعل

(*) أستاذ اللغويات المساعد بكلية التربية– قسم اللغة العربية– جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز – الخرج – المملكة العربية السعودية.

(١) العزاوي، أبو بكر، الحجاج ومعنى الحجاجي، ضمن كتاب "التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه"، تنسيق: حمو النقاري، ط١، كلية الآداب والعلوم الإنسانية: الرباط، مطبعة النجاح الجديدة: الدار البيضاء، ٢٠٠٦م، ص ٥٦.

الإنجازي) أو القوة الإنجازية، والفعل الناتج عن القول (الفعل التأثيري) من أنصع النظريات التداولية وأكثرها تناولاً لدى الباحثين التداوليين، إلى الحد الذي أصبح فيه الاستطراد في التعريف بهذه النظرية يشبه أن يكون ضربًا من التزيّد البحثي.

ولأهمية دراسة الأفعال الكلامية في تحليل الخطاب ومقاصده فقد سعت هذه الدراسة إلى بحث الوسائل المعزِّزة للقوة الإنجازية بجوانبها الحرفية والمستلزمة، من حيث إن تلك القوة: "هي الشدة أو الضعف اللذان يمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد، في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق"[(١)]، بمعنى أن الغرض الإنجازي الواحد يمكن أن يتجلى في درجات مختلفة من القوة.

ولما كان الخطاب القائم على الحوار يشكل مسرحًا ثرًّا للملفوظات الإنجازية فقد اختارت هذه الدراسة الحوار القرآني (ولاسيما حوارات الأنبياء مع أقوامهم وذويهم) مجالاً للبحث بهدف استجلاء الوسائل التي استعملها الخطاب القرآني في بعده الحواري التفاعلي من أجل تقوية تلك الملفوظات بكل أبعادها الإنجازية الحجاجية، فحيث يُعزَّز الملفوظ الإنجازي تزداد وتقوى طاقته الحجاجية، وتظهر انعكاساته على الفعل التأثيري.

ولتحقيق ذلك الهدف العلمي استثمرت الدراسة آليات المنهج التداولي في تحليل أفعال الكلام واستكناه العلاقات بين الملفوظات الإنجازية ووسائل تقويتها وتكييفها تبعا للمقاصد، ورصد ما يحيط بالفعالية الحوارية من مقاصد تواصلية ومؤشرات سياقية وأغراض حجاجية.

وقد تناولت الدراسة وسائل التقوية أو تعزيز القوة الإنجازية في الحوار القرآني على المستويين اللغوي وغير اللغوي، بيد أنها اقتصرت في الجانب اللغوي على الآليات المعجمية الاسمية منها والفعلية؛ ذلك أن وسائل التقوية تتنوع بين

---

(١) العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، ط١، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي: القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٢٨٧.

المعجمية والتركيبية والخطابية مما يقتضي بحوثًا متضافرة لاستجلائها على نحو واف، ولم يكن من هدف الدراسة الإتيان على كل ما اشتمل عليه الحوار القرآني من وسائل تقوية معجمية، وإنما انتخبتْ من تلك الوسائل ما برز ونهض بتحقيق الهدف البحثي.

كما تجدر الإشارة إلى أن الدراسات التي تناولت وسائل تعزيز القوة الإنجازية بالشرح والتحليل، درجت على أن تقسمها إلى معززات موجهة إلى المتكلم، وأخرى موجهة إلى المحتوى، وثالثة موجهة إلى المتلقي، بيد أن هذه الدراسة تؤمن أن بين هذه الجوانب الثلاثة وشائج وتلاحمًا ينهض بوظيفة تآزرية تعاضدية في تبليغ المقاصد التواصلية؛ ومن هنا نأتْ عن هذا التقسيم إلى تحليل شمولي يضم تلك الجوانب مجتمعةً في صورها المتساندة.

١- وسائل غير لغوية:

ويقصد بها ما يصاحب التلفظ من حركات جسمية كالإشارة باليد، أو تقطيب الوجه، مما يكون له تأثير في القوة الإنجازية للفعل الكلامي، وهي وسائل لا يمكن أن تظهر في الخطاب اللغوي المكتوب، بيد أن الخطاب القرآني يقصها علينا كما لو كانت أحداثًا مشاهَدة.

ويضطلع هذا السلوك الجسمي الحركي بإبراز انفعالات المتكلم وانعكاسها على موقف المتلقي وردود أفعاله وتأويله لمقاصد الخطاب على نحو يمكن أن يعدل من القوة الإنجازية للأفعال الكلامية المصاحبة، وقد أكد أوستين على "أهمية هذه الطرق والوسائط في التعبير".(١)

ومنه في التنزيل قوله تعالى :﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ

(١) نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينيني، ط٢، أفريقيا الشرق: المغرب، ٢٠٠٨ ص ١٠٢.

ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٥٠)

تبدو السلوكات الحركية المصاحبة للتلفظ عفوية في الغالب، تمليها الظروف المقامية، فحين رأى موسى عليه السلام ضلال قومه:

- ألقى الألواح (التوراة)
- أخذ برأس أخيه يجره إليه

وهي سلوكات غير لفظية تعبر عن شدة الغضب، وتعكس موقفًا غير ودّي تجاه المخاطَب، مما يجعل الفعل الكلامي الطلبي المصاحِب: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ (طه:٩٢ – ٩٣ (لا يؤوَّل على مجرد الاستفهام والاستجواب والعتب القائم على الود، وإنما الغرض الإنجازي هنا عُرض بقوة التوبيخ والتعنيف والإنكار، وقد عزز السلوك الحركي المصاحب للخطاب هذه القوى الإنجازية وأبرزها على نحو أكثر وضوحًا، بل تعدى ذلك إلى تعديل أثر الفعل أيضًا وانعكاساته على أفكار المخاطب وإحساساته، الأمر الذي جعل هارون عليه السلام يجيب بقوله: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ ﴾ (طه: ٩٤)، و﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٥٠)، ذلك أن هذا السلوك الحركي مشاع أمام الآخرين الحاضرين أيضًا، ويمكن أن يكون مظنةَ إهانةٍ مقصودة من موسى عليه السلام لأخيه، مما يفضي إلى شماتتهم بهارون، وفي هذا ما يؤكد دور السلوكات الجسمية الحركية في تفسير الموقف الاتصالي اللغوي، والتأثير في التفاعل الخطابي بين الأطراف المتحاورة، فقد صدّر هارون إجابته بطلبٍ قوته الإنجازية الالتماس والاستلطاف المشوب بالاعتراض على ما بدر من موسى عليه السلام تجاهه من أخذه بلحيته ورأسه، وفي هذا تعديل لابتدار الجواب بما هو متوقع من تقديم مبررات مباشرة تشرح ما حصل وتبرئ ساحته من التقصير والذنب.

ومما ورد في التنزيل أيضًا قوله تعالى في وصف السلوك الحركي لامرأة إبراهيم عليه السلام حين بُشّرت بإسحاق: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات: ٢٩)، فضرْبها بيدها على وجهها (في موضع الخد أو الجبهة) سلوك غير لفظي يهيئ ذهن المخاطَب إلى استشعار الدهشة في المتكلم والاستغراب والتعجب أو استهوال الخبر، وهو ما يعدّل من القوة الإنجازية للفعل الكلامي الخبري التقريري المصاحِب: (عجوز عقيم)، فهو خبر مشحون بقوى إنجازية تتمثل في التعجب والاستهوال والتساؤل الحجاجي المضمر: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ وقد اختَزل هذا السلوك الحركي تلك المعاني فأغنى عن التصريح بها في الآية المذكورة، على حين صُرّح بها في موضع آخر في ظل غياب الإشارة إلى السلوك الحركي: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود: ٧٢).

وتظهر قوة الإشارة الحركية في الحوار القرآني ودورها في تعزيز القوة الإنجازية للفعل الكلامي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٨ – ٢٩)، فبعد أن شرع قوم مريم عليها السلام في ملامتها وتوبيخها وتذكيرها بأنها من أهل التقى ولا تليق بها تلك الفعلة التي ظنوها– وكانت عليها السلام قد استحضرت هذا المشهد منذ حملت بعيسى واحتملت همّه وأيقنت أنه على أي وجه كانت إجابتها وحجتها لن تقتنع عقولهم بأن حملها معجزة– أشارت بيدها إلى المولود (محط التهمة ومظنة العار)، وقولهم (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) يستلزم أن إشارتها الحركية كانت تطلب منهم أن يوجهوا الأسئلة إليه ليجيبهم، وبهذه الإشارة التي خرجت في مطلبها عن المألوف ولم تتناسب مع هذا الموقف العصيب استُثيرت تساؤلات جديدة، وانصرفت العقول للتدبر في هذا المولود: كيف سينطق ويجيب؟ هل كانت مريم تسخر منهم وتتهكم بهم في هذا

الموقف المأزوم الذي ينبغي أن تتوارى فيه حياء وخجلاً؟ إن تلك الإشارة الحركية جعلت من نطق عيسى عليه السلام في المهد: (إني عبدالله...) يتجاوز كونه محض معجزة وحدثٍ خارق للعادة إلى إجابة فورية وآية كبرى وحجة دامغة على صدق مريم وبراءتها، فقد عدّلت تلك الإشارة القوة الإنجازية التقريرية في كلام عيسى، فإذا به إعلان براءة وطهر واصطفاء، وجعلت منه جوابًا حجاجيًّا ملجِمًا لا كلامًا ابتدائيًّا كما يبدو ظاهره، فإذا بمريم المذنبة امرأة طاهرة عفيفة، شرفت بالاصطفاء على نساء العالمين وبأن تكون أم النبي الذي ولد من غير أب.

يضاف إلى ذلك أن الأداء الفعلي للصوم عن الكلام (الصمت) الذي أمرت به مريم وأعلنته نذرًا يعد في ذاته وسيلة غير لغوية لتعزيز القوة الإنجازية لمنطوق النذر (حال كونه نذرًا بالنطق لا الإشارة)، ومعزِّزًا داعمًا للنذر حال كونه نذرًا بالإشارة لا النطق، إضافة إلى تقويته للموقف الاتصالي الحجاجي بأسره، اللغوي منه وغير اللغوي، فالصمت في موقف مريم المصحوب بالإشارة إلى الطفل هو رسالة غير لغوية ذات حمولة قصدية تداولية عالية الكثافة، فيها تعزيز للحجة المقدَّمة (عيسى عليه السلام) من خلال صرف أذهان الحاضرين عن الكلام معها وتهيئتهم للتركيز على كلام طفل المهد، كما أن الصمت عن الإجابة في هذا الموقف العصيب كان قادحًا لثنائية ضدية تأويلية في أذهان المخاطَبين، عززت في نهاية المطاف القوة الإنجازية للفعل الحجاجي، فالصمت قبل نطق عيسى عليه السلام كان مؤولاً في الأذهان بـ: التزمَتْ الصمت انهزامًا وعجزًا عن الحجة وتنصلاً من الجريمة، وهو بعد نطق عيسى عليه السلام وظهور الحق أصبح مؤولاً بـ: التزمتْ الصمت ليقينها من قوة حجتها التي أغنتها عن الكلام معنا وعن الخوض في سفاهتنا! وهو التأويل المقصود من فعل الصمت الذي آل إلى حكمة وجيهة بليغة في حضرة معجزة النطق، فإنها لو كانت قد جابهتهم بالكلام قبل نطق عيسى عليه السلام لفسحت المجال لمزيد من إهانتهم لها وتحقيرها؛ لكون الواقعة لا يبررها في العرف

والخلُق أي كلام، فلما صمتت تجلى الصمت في نهاية المطاف معجزة قائمة بذاتها، لأنه أكّد وعزز سبق علم مريم بمعجزة نطق عيسى، وسبق علمها باستغنائها بهذه المعجزة عن الدفوع الكلامية.

كما استعمل الخطاب القرآني وصف السلوك الحركي لفضح الأفعال النفسية البغيضة المتوارية خلف القوى الإنجازية لأفعال الكلام المباشرة عند المنافقين، يقول تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١١٩)، يخاطب الله تعالى طائفة من المؤمنين انطوت قلوبهم على محبة فئة من الكفار (المنافقين أو اليهود) الذين أعلنوا الإيمان (آمنّا) مما جعلهم موضع ثقة ومحبة عند المؤمنين، لكنهم في حقيقة الأمر يضمرون البغضاء والكراهية للذين آمنوا، ولم يصرح القرآن ببغضهم هنا وإنما اكتفى بوصف سلوكهم الحركي (عَضّوا) الذي يسلكونه إذا خلوا إلى بعضهم، ليترك للمؤمنين استنتاج كراهيتهم لهم وبلوغهم أقصى درجات الغيظ منهم، باعتبار أن العض على الأنامل من فعل المغتاظ الذي ليست له القدرة على المجابهة، وإنما قصارى ما يفعله هو عض أنامله لينفس عن حقده وبغضه، وهنا تصبح القوة الإنجازية للفعل الكلامي (آمنّا) ليست إعلان الإيمان والدخول في الإسلام، وإنما المخاتلة والخداع التي تستلزم البغض والكراهية مقابل محبة المؤمنين لهم. وسواء كان العض على الأنامل حقيقة أم مجازًا (كناية عن الغيظ) فقد شكل صورة عرت المقاصد الحقيقية للمنافقين، وعدّلت القوى الإنجازية لملفوظاتهم من خلال إبراز التناقض البغيض بين ما يقولونه بأفواههم وما يقولونه بحركاتهم الجسدية. ومع أن هذا السلوك الحركي لم يكن متزامنًا مع الملفوظ (آمنّا) غير أن المقابلة التي عقدها الخطاب القرآني تعقد صلة ومناسبة بينهما تجعل من هذا السلوك غير اللفظي يضطلع بتعرية النوايا وتكييف القوة الإنجازية تبعًا لها، ويعبّر –أمام أخلائهم وأعوانهم–

عن معتقدهم وموقفهم الحقيقي تجاه (المؤمنين)، وأنه موقف العداء والرفض والغيظ وليس موقف الإيمان الحق.

٢- وسائل لغوية معجمية:

وهي "ما قد يستخدمه المتكلم – في بعض السياقات الاتصالية- من عناصر معجمية تضيف قوة إلى قوة المنطوق الإنجازية"[١]، وتتنوع بين وسائل معجمية اسمية وأخرى فعلية.

أ- وسائل معجمية اسمية:

- الظرف (أبدًا):

يفيد هذا الظرف استغراق الحدث للمستقبل، ويأتي مع الجمل التقريرية والمنفية لتأبيد الأحداث، مما يضفي قوة إلى القوة الإنجازية للأفعال الكلامية، وقد لحظ المفسرون ذلك واستدلوا من مجيء هذا الظرف مع الأداة (لن) على عدم إفادة (لن) التأبيد – كما زعم بعضهم- إذ لو كانت تفيده لكان مجيء الظرف (أبدًا) معها ضربًا من تكرار المعنى، وإنما جيء بالظرف لتقوية النفي وتأبيده، ومنه في التنزيل: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤)، وكان قوم موسى عليه السلام قد أعلنوا من قبل رفضهم قتال الأعداء: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ (المائدة: ٢٢)، والفعل الكلامي المعبّر عن الرفض هنا هو النفي المنجز بالأداة (لن)، ولما راجعهم موسى وكرر عليهم الأمر بالقتال كرروا جوابهم مصحوبًا بالظرف التأبيدي (أبدًا) لتقوية النفي وتأكيد التمرد والعصيان المنفلت من قيود الزمن وتأطير الأحداث. وهذه التقوية لها أثرها النفسي على المتلقي؛ إذ أوصدت

(١) الصراف، علي محمود حجي، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط٢، مكتبة الآداب: القاهرة، ٢٠١٤م، ص٢٧٤.

أمامه منافذ الرجاء في استجابتهم للأمر، وأضفت على الموقف الاتصالي شحنة عدائية، وجردته من الخلُق التأدبي الحواري؛ إذ إصرارهم على هذا الرفض والتمرد الفج لم يكن له مبرر في ظل وعد موسى عليه السلام لهم بالنصر والغلبة، مما دفعه إلى الدعاء عليهم.

ويتكرر مجيء الظرف (أبدًا) في خطابات الجبابرة والكفرة لزيادة درجة القوة الإنجازية للمنطوق: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (الكهف: ٣٥ – ٣٦)، فلم يكتف أن نفى الظن (ونفيُ الظنِّ نفيٌ للشك والريب وتقريب للكلام من اليقين) وإنما جاء بالظرف التأبيدي لتقوية النفي، وحيث يقوى النفي يتأكد ما يقع في حيزه من الزعمِ بأن جنته خالدة لا يشملها الفناء، والتقوية هنا أضفت معاني الغرور والكفر والجرأة على الله، وانعكس فعلها التأثيري على المتلقي (المؤمن الذي يحاوره) فدعا على جنته التي هي موضوع غروره وزهوه وسبب توهم الأبدية وإنكار البعث. ويلاحظ أن تقوية القوة الإنجازية هنا رهين السياق المقامي، فقد أكّد موقفه وعزّز محتوى كلامه: (ما أظن أن تبيد هذه) بالظرف (أبدًا) من حيث إن المضمون المؤكد هنا يتصل بأمور حالية مشاهَدة أغرته وخيّلت له الأبدية، لكنه لم يعزّز قوله الآخر: (وما أظن الساعة قائمة) لكون المؤكَّد هنا من الأمور الغيبية المستقبلية؛ لذا عطف عليه بافتراض مضاد متعالٍ: (ولئن رُددت إلى ربي...).

ويستعمل الظرف (أبدًا) في خطاب النفاق لتقوية الأفعال الإنجازية الالتزامية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (الحشر: ١١)، فقولهم (ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا) ظاهره الوعد والعهد وباطنه الخداع، ذلك أن المتكلمين هنا لا تنطوي سريرتهم على قصد الوفاء بما يقولون، مما يجعل من تقوية هذا المنطوق بالظرف (أبدًا) وسيلة للمخاتلة

والتضليل في حقيقة الأمر استنادًا إلى المقاصد الحقيقية التي عراها الخطاب القرآني (والله يشهد إنهم لكاذبون)، فزيادة شدة القوة الإنجازية هنا لم تتحقق لها شروط النجاح تبعا لفشل المنطوق الإنجازي موضوع التقوية (الوعد)، فالوعد يقتضي "التزام القائل بخصوص مقاصده أو اعتقاداته"(١)، وهو مبدأ تداولي التفت له المفسرون، وفطنوا إلى أن الخطاب القرآني حكم على وعودهم بالكذب "إما لأنهم قالوا لهم قولا ومن نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه"(٢)، فخرقوا بذلك أهم شروط نجاح الفعل الكلامي: الإخلاص في النية، والقدرة على الالتزام.

والغالب على الظرف (أبدًا) المستعمل لتقوية المنطوق الإنجازي في الحوار القرآني المحكي عن اللسان البشري هو تأكيد موقف سلوكي حركي كما في آية المائدة، أو موقف اعتقادي كما مر في آية الكهف، أو موقف التزامي كما في آية الحشر، أو موقف نفسي عاطفي كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (الممتحنة:٤)، فإعلان العداوة والبغضاء جاء على سبيل التأبيد، لكنه تأبيد مقيّد بغاية (حتى تؤمنوا بالله)، وهنا يتبين فرق ما بين خطاب المؤمنين وخطاب الكفار في تعزيز القوة الإنجازية للمنطوق بالظرف التأبيدي، فخطاب الكفر يستعمله لتأكيد مواقف الكفر والعداوة والعصيان غير المبرّر؛ ولذلك جاء التأبيد فيه في سياق النفي المطلق، والنفي بطبيعته ينطوي على مجابهة ورفض وصدود، أما خطاب الإيمان فيستعمله في سياق

(١) روبول، آن، وموشلار، جاك، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ت: سيف الدين دغفوس، ط١، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٣٤.

(٢) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي، تفسير القرآن العظيم، ط١، مؤسسة الرسالة: بيروت،٢٠٠١م، ٤/ ٤٣٥.

الإثبات لتأكيد موقف الدعوة إلى التوحيد، فهو خطاب العقل والحكمة والحزم الذي يقتضي أن يقوي منطوقه الإنجازي (إعلان العداوة والبغضاء) ويزيد من درجة شدته إلى غاية سامية يتحقق معها الهدف، وتترك للمتلقي حرية الخيار بين الإبقاء على التأبيد أو نقضه بتحقيقها.

– ويل/ ويلة:

كلمة (ويل) ومؤنثها (ويلة) تستعمل في الحوار القرآني المحكي مضافة إلى الضمير للدلالة على معاني الهلاك وهول الموقف، ولها في هذه الحال صورتان: أن تُسبق بأداة النداء (يا) وهو الغالب، وتكون هنا مضافة إلى ضمير المتكلم أو المتكلمين، أو تأتي مجردة من أداة النداء وتكون حينئذٍ مضافة إلى ضمير المخاطَب أو المخاطَبين.

وفي كلٍّ تأتي هذ الوحدات المعجمية بحمولتها الدلالية الجاهزة توطئةً وتقويةً للقوة الإنجازية لأفعال الكلام التي تليها، وتلك الأفعال نوعان: طلبية، وإخبارية تقريرية.

وأكثر مجيء ألفاظ الويل في الحوار القرآني – بالوصف السابق– كان في سياق وصف موقف المشركين يوم القيامة، ومما ورد من ذلك متبوعا بأفعال كلامية طلبية:

-﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢).

-﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا ﴾ (الكهف: ٤٩).

-﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ (الفرقان: ٢٨).

إن مناداة المشركين لـ (الويل) في مشاهد القيامة في آيتَي (يس) و(الكهف) فيه تنبيه وتقوية للغرض الإنجازي الطلبي (الاستفهام)، وتعزيز للقوة الإنجازية

المستلزمة التي تتمثل في الحيرة والدهشة والهلع من فجاءة الحدث الذي كانوا ينكرونه، وفيه تقوية للغرضِ الطلبي (التمني) في آية الفرقان وقوتِه الإنجازية المستلزمة التي تتمثل في الندم والحسرة التي تتلبس الظالم جراء اتباعه الأخلاء والمضلِّين.

وردت ألفاظ الويل أيضًا متبوعة بالطلب (الاستفهام) في سياق الأحداث الدنيوية العصيبة كما في قصة قتل ابن آدم لأخيه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ (المائدة: ٣١)، أو الخارقة للعادة كما في حوار امرأة إبراهيم :عليه السلام ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ (هود:٧٢)، والقوة الإنجازية المستلزمة للاستفهام في آية المائدة هي الحسرة والندم، وفي آية هود العجب، وأكدت ألفاظ الويل هذه القوى ومكّنتها وهيّأت لها ذهن الملتقي لتبدو أكثر شدة وعمقًا.

وعامة تظهر القوى الإنجازية للأفعال الكلامية في الحوار القرآني أكثر شدة حين تسبقها ألفاظ الويل؛ إذ يؤكِّد بها المتكلم شعوره بالهلاك والخزي والبلاء والفضيحة، أو الندم أو العجب، ويمتد تأثيرها إلى المتلقي؛ إذ يتهيأ بها ذهن السامع ويشتد انتباهه لما سيرد في الخطاب من حدث جلل، ولذلك اقترنت بحرف النداء عند إضافتها لضمير المتكلم أو المتكلمين، على حين خلت منه عند إضافتها لضمير المخاطَب أو المخاطبين؛ لكونه معرض نصح وإرشاد لهم لا استحضار هلاك وبلية:

-﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ (الأحقاف: ١٧).

-﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ (طه: ٦١)

جاءت ألفاظ الويل هنا لتقوية المنطوقات الإنجازية الطلبية (آمِنْ) و(لا تفتروا)، فكانت بمثابة الزجر والردع الموطّئ للأمر والنهي، إضافة إلى حمولتها الدلالية الجاهزة التي اكتسبتها من التداول والاستعمال الذي جعل منها ألفاظًا تستحضِر معاني التهديد والوعيد والتخويف، مما يقوي أيضًا أثر الفعل الإنجازي في المتلقي؛ إذ مما لا منازع فيه أن قوله (ويلك آمِنْ) و(ويلكم لا تفتروا) أقوى تأثيرًا من (آمِنْ) و(لا تفتروا).

وأما ما ورد من ألفاظ الويل متبوعًا بأفعال كلامية تقريرية في الحوار القرآني فمنه:

-﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٧).

-﴿ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٦)

-﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ (الصافات: ١٩ – ٢٠).

ومن اللافت للنظر أن حوارات الكفار يوم القيامة المصدرة بألفاظ الويل موضوعها (البعث والحساب) لا غير، وإنكار البعث هو من القضايا الكبرى التي ناقشها القرآن طويلا، والأفعال الكلامية المستعملة في خطاب الكفار يومئذ – في أغلبها– تقريرية قوتها الإنجازية تتجلى في الاعتراف المشوب بالدهشة والذهول والمفاجأة والفزع، إذ إن أُولى الحقائق المهولة التي تشاهدها أعينهم وتشخص لها حينئذ هو البعث بعد الموت الذي كان مثار سخرية في الدنيا واستبعادٍ وكفر، فصُدّر خطابهم بألفاظ الويل لتقوية المنطوق الإنجازي ليبدو أكثر شدة وتعبيرًا عن

عمق وقع الحدث في نفوسهم، بل يخبرنا القرآن أنهم يدعون بالويل حتى على افتراض أن (تمسهم) مجرد (نفحة) من العذاب الموعود، ثم يعقبون ذلك الويل بالاعتراف نفسه، فكيف بحالهم وشدة فزعهم في اليوم الحق!

وجاء لفظ الويل هنا مضافًا إلى ضمير المتكلمين لا ضمير المفرد؛ للإشارة إلى الجرم المشترك والتواطؤ عليه، والإيحاء بالتلاوم والتخاصم، كما أن نداء الويل على الرغم من أنه يحمل معاني الهلاك والبلية مشعرٌ بتأنيب النفس والرجوع عليها بالملامة، فتلك ضروب من وسائل تقوية التقوية؛ إذ يتآزر النداء مع ألفاظ الويل التي تضطلع بالدور المهيمن في تعزيز القوة الإنجازية، يضاف إلى ذلك أن زيادة درجة الشدة تنعكس أيضًا على المتلقي الكوني الذي ينبغي أن يتأمل ويحذر ويتعظ.

- قبل:

يعبر هذا الظرف عن قبلية الأحداث أو الأمكنة بحسب ما يضاف إليه، وحيث يكون هناك (قبل) في الزمان أو المكان، يكون هناك (بَعْد) أيضًا، سواء أكان منصوصًا عليه أم مفهومًا من السياق.

وقد استعمل الحوار القرآني هذا الظرف لتقوية المنطوقات الإنجازية في بعدها الزماني، وتأثيرها التفاعلي بين أطراف الحوار، وخلق تراتبية في الحجج تزيد من درجة القوة الإنجازية للملفوظات: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ (الأعراف: ١٢١ - ١٢٣)، فقول فرعون للسحرة (آمنتم به) فعل كلامي إخباري تقريري أو طلبي (استفهام مضمر)، قوته الإنجازية في كلٍّ تكمن في توبيخ السحرة والإنكار عليهم، فمحتواه القضوي (إيمانهم برب موسى وهارون) معروف للسامعين لا يحتاج إلى إخبار إلا على سبيل التوبيخ، غير أن هذا التوبيخ والإنكار لا تكتمل صورته ولا تحتد درجة وضوحه إلا بقوله (قبل أن آذن لكم)، فالظرف (قبل) وما وقع في حيّزه (وهو استئذان فرعون) كان

بمثابة القيد الفرعوني المفترَض السابق للحدث (حدث الإيمان) الذي يمكن أن يُقبل من خلاله إيمانهم برب موسى وهارون، وحيث لم يتحقق هذا القيد فالإيمان مرفوض مستنكَر غاية الاستنكار، وكان يمكن لفرعون في شريعته الطاغية المستبدة أن ينكر عليهم إيمانَهم برب موسى وهارون وتركَ الإيمان به لمجرد أنه فرعون (ربهم الأعلى) فحسب، لكنه أضاف هذا القيد القبلي (على هشاشة منطقه) لغرض تقوية موقفه في الإنكار عليهم وإنزال العقوبة بهم.

ويبدو أن هذا الظرف كان على موعد مع فرعون في الخطاب المضاد، وفي موقف مناقض للسابق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (يونس: ٩٠ – ٩١)، تحيل (قبل) هنا بدلالاتها المكثفة المطوية إلى حياة فرعون الماضية بأكملها، بكل ما فيها من جبروت وعصيان، وعلى الرغم من أن البنية الزمنية للفعل الكلامي التقريري (وقد عصيت) تشير إلى الماضي حتمًا، فإن (قبلُ) فيها تقوية لهذا المنطوق في محتواه الزمني والقضوي، وتأكيد على أن شرط قبول الإيمان هو أن يقع في تلك الفترة القبلية لا في لحظة الاحتضار، وفي ذلك أيضًا ما يكفي لتقوية أثر الفعل الإنجازي في تلك النفس الفرعونية الطاغية، وإيقاد شعورها بالحسرة والندم على ما فرطتْ في ذلك القبل وأمعنت في الإفساد.

لقد اختزلت (قبلُ) صورتين متقابلتين: صورة الحياة الماضية الطويلة المطمئنة، وصورة اللحظة الحاضرة القصيرة التي يلفها الموت والهلع، وتبدو قوة التقابلات الخطابية هنا في تعزيز الفعلِ الكلامي الطلبي الاستفهامي (آلآن...؟) وقوتِه الإنجازية المستلزمة وهي الاستنكار والرفض الضمني لإيمان فرعون، كما تُظهِر (قبلُ) فاعلية حجاجية داعمة لسلسلة الأفعال الكلامية على مستوى البنية النصية الكبرى للخطاب القرآني في عرضه لقصة فرعون، من حيث إنّ "التقابل

بنية ناظمة تحقق اتساق النص وتضامه"[1]، وما الاتساق والتضام إلا وسيلة من وسائل القوى الخطابية المؤثرة في الفهم والإفهام؛ ذلك أن فرعون استعمل (قبل) لسوق حجة (مستقبلية) ضعيفة (قبل أن آذن لكم) ابتدعها لتبرير استبداده وطغيانه، فالإيمان فعل قلبي يقع ويستقر في النفس ولا ينتظر الإذن، ولا يخضع لإرادة الغير، بينما استعملها الخطاب القرآني المضاد لتقوية توبيخه لفرعون على فعله (الماضي) المسؤول عنه (عصيانه ورفضه الإيمان) على الرغم من مجيء الآيات الدامغة التي لم تدع له مجالًا أو مبررًا للتكذيب، فكانت (قبل) بمعانيها الضمنية الغزيرة بمثابة رد سجالي ساخر مؤلمٍ، قوّض الحجة المغالطة ودحض الباطل وعزز القوى الإنجازية المباشرة والمستلزمة، وعمّق تأثيرها في المخاطَب.

وترِد (قبل) في الحوار القرآني لتعضد القوى الكلامية المنجزة على ألسنة الشخصيات المحورية (الأب والابن والإخوة) في قصة يوسف : عليه السلام

-﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (يوسف: ٦٣ – ٦٤).

-﴿* قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ٧٧).

-﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٨٠).

تؤكد (قبل) في الآيات السابقة القوة الإنجازية لملفوظات تعبّر عن أحداث موغلة في المضي، وتحيل على مجموعة وقائع قبلية (قصة ماضية) معروفة في

(١) بازي، محمد، البنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب، ط١، كنوز المعرفة: عمّان، ٢٠١٥م، ص١٠٢.

المخزون الذهني لدى المخاطَبين، لا يُذكر سوى طرف منها، ومن ثم فمجيء (قبل) بمثابة تبئيرٍ لزمن القصة القديمة، وتقويةٍ للقوة الإنجازية لمنطوقاتٍ تظهر في الخطاب الحواري (العارض والمعترض) متصارعةً بين الحق والباطل، ففي الآية (٦٤) من سورة يوسف تبرز القوة الحرفية للفعل الكلامي الطلبي (هل آمنكم...) في صورة استفهام قوته المستلزمة هي الإنكار وتوجيه الاتهام من يعقوب عليه السلام لأبنائه، وتذكيرهم بالخيانة القديمة، كما يتضمن الاستفهام نفي ادعائهم الأمانة والصدق في حفظ أخيهم بنيامين، وتأتي (قبلُ) لتقوية الدليل والحجة – التي أوردها يعقوب (صنيعهم بيوسف عليه السلام)– على خيانتهم تلك التي تستوجب النتيجة: انعدام الثقة فيهم، فالظرف يستحضر ويؤكد جرمًا قبليًّا بكل تفاصيله الكيدية المؤلمة التي طالما كانت مثار خلاف بين الأب وأبنائه، كما أنه يزيد من درجة القوة الإنجازية التأثيرية في نفوس المخاطَبين، فتلك الأحداث القبلية التي كانت سببًا في هدر الثقة سلبتهم المصداقية والنزاهة فيما سيأتي من أفعالهم من وجهة نظر أبيهم، وذِكْره لها في ذلك المقام المشابه (مقام طلبهم منه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين مع ادعائهم الحفاظ عليه) جدد موقف الشك وأنها أحداث لم تُنسَ ولم يكونوا مصدَّقين فيها، مما يستوجب منهم أن يكونوا حذرين في سلوكاتهم القادمة لكونهم مظنة الاتهام والكيد والكذب.

وترد (قبل) على لسان الإخوة (الآية ٧٧) لتزيد من قوة الفعل التقريري (فقد سرق أخ له) بحمولته الإنجازية المستلزمة (اتهام الشقيقين بالسرقة)، ومن ثم تبرئة أنفسهم منها؛ إذ لم يسرق من بينهم إلا شقيق يوسف دون غيره، مما يجعل من (قبل) مؤشرًا حجاجيًّا – وإن كان مغالِطًا– يقوّي ادعاءهم بأن السرقة لا تعدو أن تكون طبعًا قديمًا متأصلاً في الشقيقين: يوسف وبنيامين، وقد انعكست هذه التقوية على درجة تأثير الفعل الإنجازي في السامع إذ أكدت ليوسف عليه السلام أن إخوته ما زالوا على طبعهم من البغض القديم له، مما جعل يوسف يرد عليهم في سريرته: (أنتم شر مكانًا)، وهو ردٌّ لو لم يُسِرّه لكان كفيلاً بأن يجلّي حقيقة ما كان (قبل)

ويذكرهم بشناعة فعلهم، فمضمون الرد ينطلق من (القبلية) التي انطلقوا منها، لكنها قبلية ضمنية تفاضلية تظهِر فعلهم القبلي (الذي فعلوه وهم في مرحلة النضج واكتمال العقل) على أنه يفوق في الشر ما استشهدوا به من حادثة السرقة العابرة التي ارتكبها يوسف (أو لُفقت له) وهو في مرحلة الطفولة البريئة، لكنه أسرّ ذلك الرد مراعيًا بذلك – وهو في أبّهة الملك– قوانين التخاطب القائمة على مبدأ التأدب الذي من قواعده قاعدة التودد ومقتضاها: "لتُظهِر الود للمخاطَب"[1]، فإسراره ذلك الرد كان بمثابة تقوية القوة الإنجازية لفعل التودد الذي أظهره لهم منذ اللقاء الأول، مما زرع الثقة في نفوسهم وهيّأ نجاح حيلة يوسف.

وتبرز (قبل) مرة ثالثة في خطاب الأخ الكبير الحكيم (الآية ٨٠) لتؤكد صدق هاجس أبيه ومخاوفه منهم، وتعلن في الوقت نفسه عن موقف الابن الرافض لما وقع (قبل) وتؤكد اعترافه بالجرم القديم (التفريط في يوسف)، وتصنع (قبل) بذلك مقابلة بين اللحظة الحاضرة والماضية الشبيهة بها في وقائعها: نقض المؤثِق، والتفريط في الأخ، لتدعيم القوة الإنجازية المستلزمة من الفعل الكلامي الطلبي (ألم تعلموا) وهي (التنبيه والتقرير واللوم)، مما عزز أيضًا تأثير الفعل الإنجازي في نفوس المتلقين من شعورهم بالحرج، وربطهم للأحداث الراهنة بالحدث القبلي الذي تخوف منه أبوهم، ومحاولة البحث عن حلّ للخروج من هذا المأزق أمام أبيهم.

وتأتي (قبل) في ختام القصة على لسان بطلها يوسف: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ (يوسف: ١٠٠)، لتحيل إلى رؤيا سابقة، فقوله: (هذا تأويل رؤياي) هو جملة اسمية تقريرية لا تشير إلى زمن الرؤيا، لكن الملفوظ (من قبل) يستلزم فعلاً كلاميًّا مطويًّا مفاده (التي رأيتها من قبل)، وفي التصريح

(١) عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط٣، المركز الثقافي العربي: المغرب، ٢٠٢١م، ص ٢٤١.

بالقبلية تقوية لتلك القوة الإنجازية الخبرية المطوية المستلزمة، إذ تعيد الأذهان إلى بداية القصة في الزمن القديم (إني رأيت) مقابل تحقق الرؤيا في اللحظة الحاضرة (قد جعلها ربي حقا)، فالقبلية هنا تومئ إلى العناية الإلهية والفضل الذي كان يحفه منذ طفولته، ومن كان مستحقًّا لتلك العناية الربانية، فلا غرو أن ينال مزيد عناية ورعاية من الأب.

هكذا رافق الظرف (قبل) شتى الأفعال الكلامية الواردة على ألسنة الشخصيات في القصة اليوسفية لزيادة درجة قوتها الإنجازية من خلال تبئير المفاصل الزمنية والموضوعية المحورية في القصة، واستعادة الأحداث وفق بنى تقابلية تآزرية، تعضد المعنى المقصود وتزيده وضوحًا وبروزًا.

وتأتي (قبل) بوصفها قيدًا زمنيًّا يزيد من درجة القوة الإنجازية للمنطوقات بالنظر إلى الأحداث المستقبلية أيضًا، كما في الحوار العجائبي الآتي بين سليمان عليه السلام وحاشيته:

-﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٣٨).

-﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: ٣٩).

-﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠).

طلب سليمان عليه السلام من حاشيته أن يأتوه بعرش بلقيس قبل أن تصل إليه مسلمةً طائعة، فقيد الطلب بقيد زمني محدد خارق للعادة يستوجب السرعة، وعندها تبارى اثنان من حاشيته في تنفيذ المطلوب باستعمال الظرف نفسه (قبل) مع تغيير الإطار الزمني الذي يقع في حيّزه، فعلى حين استعمل سليمان الظرف لتوقيت الإتيان بالعرش بالنظر إلى نقطة مستقبلية قصوى قد تأخذ مدى زمنيًّا واسعًا وهي وصول ملكة سبأ، قلّص المتباريان زمن إتيانهما بالعرش بالنظر إلى لحظة مستقبلية لا تتجاوز أفعالاً حركية يقوم بها سليمان في الآن نفسه في

مجلسه؛ لإدراكهما أهمية عنصر الزمن في ظل البعد المكاني (المسافة)، فأوردتْ (قبل) ثلاثة قيود زمنية ضمن سلّمية متدرجة في تعزيزها للقوة الإنجازية، فالمطلوب السابق على القيد له المحتوى القضوي نفسه (الإتيان بالعرش)، عُرض الأول في سياق طلبي (الاستفهام) المقصود به الأمر بالإتيان، وعرض الثاني والثالث بوصفهما فعلين كلاميين التزاميين ينطويان على الوعد بالتنفيذ، واضطلعت (قبل) بزيادة درجة القوة الإنجازية لتلك الملفوظات من خلال التقييد الزمني الذي تدرج من القوي (قبل أن يأتوني مسلمين) إلى الأقوى (قبل أن تقوم من مقامك) إلى الأعظم قوة (قبل أن يرتد إليك طرفك)، وكان وعد الإتيان المقيد بقبلية ارتداد الطرف هو الملفوظ الإنجازي الذي حاز الفعل التأثيري المطلوب (رضا سليمان وقبوله له) بفضل تعزيزه بتلك القبلية الخارقة بأبعادها الثلاثة: السرعة/ الزمن/ المسافة.

– كل:

تعد لفظة (كل) من ألفاظ العموم والإحاطة، وقد وردت في التنزيل كثيرًا، وما يهم هذه الدراسة هو مجيئها في السياق الحواري بوصفها معزّزًا لقوة المنطوق الإنجازية:

-﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ (القصص: ٤٨).

-﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٤٩ – ٥٠)

-﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (يونس: ٧٩).

في آية سورة القصص (٤٨) يقص الخطاب القرآني الحوار الذي دار بين النبي ﷺ ومشركي مكة، حين طلبوا منه على سبيل التعنت أن يُؤتى مثل ما أوتي نبي الله موسى من التوراة والمعجزات، فرد عليهم القرآن بأنهم قد كفروا بما أوتي

موسى، واتهموه بالسحر وكفروا به وبالنبي مؤكدين كفرهم بقولهم: (إنّا بكلٍ كافرون)، فصرحوا بكفرهم من خلال ملفوظ إنجازي خبري قوته الإنجازية إعلان الكفر والعصيان، وجاءت لفظة (كلّ) بما تحمله من معاني الإحاطة والشمول لزيادة درجة القوة الإنجازية، ومما عضد دورها التعزيزي تبئيرُها من خلال التقديم على الخبر (المتعلَّق به)، وحَذْفُ ما أضيفت إليه ليذهب ذهن المتلقي كل مذهب في إحاطة الكفر بالأنبياء وكتبهم وكل ما جاؤوا به، ولم تضطلع (كلّ) بوظيفة التعزيز لقوة المنطوق الإنجازية في مقالة الكافرين وحسب، بل نهضت بمقتضاها المعجمي بوظيفة تعزيزية محورية للفعل الإنجازي الحجاجي القرآني بوصفه ردًّا على الكفار، وأكدت جملة من الأمور على النحو الآتي:

– قولهم (بكلٍّ كافرون) فيه تقوية وتأكيد لقوة المنطوق الإنجازية الإنكارية (أولم يكفروا بما أوتي موسى)، من حيث إن الاستفهام هنا مقصود به التقرير والإثبات، أي: (لقد كفروا بما أوتي موسى)، وهي قوة إنجازية مستلزمة لكنها تضاهي القوة الحرفية المباشرة في استباقها إلى الذهن حتى لا يتبادر إلى الفهم غيرها، وهو ما أطلق عليه اللسانيون (ظاهرة التحجر) التي تنزع فيها هذه التراكيب الاستفهامية المنفية إلى أن يصبح فيها "الإخبار المثبت القوة الحرفية الوحيدة، وإلى أن تنعدم –نتيجة لذلك– حالات استعمالها بقصد السؤال".[1]

– قولهم (بكلٍّ كافرون) فيه تقوية للوصف الضمني لهم بالتناقض، فهو قول لا يستقيم مع قولهم (لولا أوتي ما أوتي موسى)، فشمولية كفرهم بالنبيَّين (موسى ومحمد) المستمدة من منطقهم حجةٌ ناقضة لما قالوه، معززة للخطاب المعترض.

(١) المتوكل، أحمد، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ط١، منشورات كلية الآداب: الرباط، ١٩٩٣م، ص٢٥.

وهكذا لم تكن (كلّ) مجرد سور يضفي على القضية بعدها الكلي و"ينتشر على الملفوظ عاصمًا إياه من المقتضيات المحتملة"[1] وحسب، وإنما هي منتشرة على الخطاب الحواري برمته، متغلغلة في منطوقاته الإنجازية، ومضاعِفة للفعل التأثيري: الإقناع بأن الكفرة كاذبون متعنتون في مطلبهم، لا تنقصهم الأدلة والبينات الداعية للإيمان ليطلبوها بدليل شمولية كفرهم بها من قبل ومن بعد.

كما جاءت (كل) لتقوية المنطوقات الإنجازية في الحوار السجالي الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون، فقد عزز موسى خطابه لفرعون بـ (كلّ) منذ اللحظة الأولى التي جاءه فيها يدعوه إلى الإيمان بالله، فحين سأله فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ٤٩) لم تكن إجابته عليه السلام: أعطى الأشياء خلْقها، وإنما عزز القوة الإنجازية الخبرية الجوابية بـ(كلّ) ليقطع على فرعون أي محاولة للمراوغة واستثناء نفسه من تلك الأشياء، فأحاط الأشياء على سبيل الاستغراق لتشمل فرعون وملكه وما أوتي.

وأما الفعل الكلامي الطلبي (ائتوني) في خطاب فرعون في آية يونس (٧٩) فغرضه الأمر، وقوته الإنجازية غير المباشرة تكمن في قصد الغلبة والتعجيز والتحدي لنبي الله موسى عليه السلام، فلم يكتف فرعون أن طلب المجيء بالسحرة العلماء بالسحر، وإنما استعمل الملفوظ (كل) لزيادة قوة المنطوق الإنجازية، فيشمل الأمرُ بالإتيان كلَّ أفراد السحرة المنعوتين بالخبرة والعلم بالسحر فلا يغادر منهم أحدًا، وفيه من جهة أخرى تقوية للفعل الحجاجي المنجز في بنية الخطاب القرآني، فمحاولة فرعون تسوير أفراد السحرة العالمين بالسحر – على الرغم من أن ساحرًا واحدًا عليمًا من المفترض أن يفي بالمطلوب– يشير إلى توجسه من الهزيمة، واعترافه الضمني بأن ما جاء به موسى لا يدمغه أمر عادي، ولا يبطله

(١) الناجح، عز الدين، الحجاج في الخطاب القانوني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية: تونس، ٢٠١٢م، ص ٩٤.

أيّ سحر، كما أن فيه تقوية للحجة القرآنية الضمنية العامة بأن الطاغية قد يستجلب (كل) ما لديه من طغيان وجبروت ويبوء بالهزيمة أمام الحق المنزل من عند الله، وبذلك نهضت (كل) بحمولة تعزيزية مكثفة للقوى الإنجازية المباشرة والضمنية في الخطابين: العارض والمعترض، فإن موسى عليه السلام حين قال عقب اجتماع (كل) السحرة وإتيانهم بكل باطل: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ (يونس: ٨١)، ثم تحقق ذلك البطلان بالمعجزة الإلهية، ظهرت قوة منطوق حجته وعظمتها، فهي لم تجابه ساحرًا واحدًا عاديًّا، بل (كل ساحر عليم)، وانعكس ذلك التعزيز على الفعل الإنجازي التأثيري: خضوع ذلك الـ (كل) من السحرة وإعلانهم الإيمان بالله، فإنه لو حضر ساحر واحد أو اثنان لم يكن سيخضع بالضرورة بقية السحرة الغائبين، كما برزت حمولتها الحجاجية التعزيزية من خلال كونها مقابِلا للواحد (موسى عليه السلام) الذي فاز منفردًا بالنصر والغلبة، وبذلك تنتشر شمولية (كل) في الخطاب بأكمله بوصفها معززًا للقوى الإنجازية المستلزمة والتأثيرية معا.

- (حاشا) التنزيهية/ معاذ الله:

تتردد (حاشا) التنزيهية في آراء النحاة بين الاسمية والفعلية، ويظهر مما قدمه كل فريق من حجج أن الراجح فيها كونها اسمًا (مصدرًا نائبًا عن الفعل)[١]، وأيًّا ما يكن فقد وردت في الحوار القرآني في موضعين من سورة يوسف بمعنى: تنزيهًا لله أو معاذَ الله عند من يراه اسمًا، أو بعُد يوسف عن أن يكون بشرًا، أو بُعد مما رُمي به لأجل الله عند من يراه فعلاً، وفي كلٍّ يُظهِر السياق معنى التنزيه والتبرئة أو إنكار واقع أو تهمة:

(١) ينظر: أبو راس، محمد أمحمد، اختلاف النحاة في "حاشا" التنزيهية بين الاسمية والفعلية: استعراض المذاهب وأدلتها، مجلة التربوي، العدد٤، جامعة المرقب، كلية التربية، ليبيا، ٢٠١٤، ص ٢٦٧.

-﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١).

-﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ (يوسف: ٥١).

ولدى تأمل الملفوظ (حاشا لله) في الآيتين السابقتين يلاحظ ما يأتي:

– أنه ورد في الموضعين في بدء الكلام، وهذه الموقعية لها تأثيرها التداولي، ولاسيما أن (حاشا) التنزيهية أشبه ما تكون بالتركيب المسكوك الحر في موقعيته من الخطاب، فهي ترد أيضًا –كما هو ثابت في الاستعمال– في وسط الكلام بوصفها جملة اعتراضية، وترد في نهاية الكلام، لكن ورودها في بدء الكلام في الحوارات القرآنية السابقة فيه شحذ لانتباه المخاطب وإثارة ذهنه لما سيأتي، مما يقوي منطوق الخطاب بكل مقاصده.

– أنه ورد في الموضع الأول جوابًا ضمنيًّا عن سؤال ضمني من امرأة العزيز للنسوة بشأن رأيهن في جمال يوسف وملامتهن لها على مراودته، وجوابًا مباشرًا عن سؤال صريح (ما خطبكن...؟) في الموضع الثاني، وهذا يجعل منه ملفوظا ينطوي على علاقة جدلية مع الأطراف المتحاورة لتضمنه معنى الإنكار وعدم الاتفاق مع الآخر، الأمر الذي يؤول إلى تعزيز القوة الحجاجية.

– تأتي المصادر النائبة عن فعلها في الاستعمال مقصودةً لذاتها، أما هذا الملفوظ إذا تصدر الكلام فقد جرى الاستعمال أن يجيء توطئةً وتمهيدًا لتأكيد ما سيأتي من مضامين، ودفع أي شك فيها، مما يجعله مضارعًا لوظيفة القسم الذي يُؤدَّى لتعزيز القوة الإنجازية، فتنزيه الله هنا ليس مقصودًا لذاته، فالملفوظ في مقصدية المتكلم يتجاوز محتواه الحرفي التعبدي، وهو ما التفت له الرضي فقال: "وربما أرادوا تنزيه شخص من سوء، فيبتدئون بتنزيه الله سبحانه وتعالى من

السوء، ثم يبرئون من أرادوا تبرئته... فيكون آكد وأبلغ"[١]، وهذا التأويل التداولي الذي أدلى به الرضي إنما هو مستمد مما اكتسبه هذا الملفوظ من رافد الاستعمال والعرف التخاطبي، وهو آكد وأبلغ من جهة أن اقترانه بلفظ الجلالة – على الرغم من أن التنزيه والتبرئة مقصود بها يوسف عليه السلام– فيه تقوية للفعل الإنجازي الحجاجي، فهن لم يقلن (حاشاه) بل (حاشا لله)، وكلمة (الله) بمقتضاها المعجمي كما يقول صولة: "آسرة بوجه ما، ملزِمة على نحو ما"[٢]، بيد أن (حاشا لله) في الموضع الأول (الآية ٣١) وردت في سياق عاطفي يتمثل في إنكار بشرية يوسف عليه السلام وادّعاء انفلات جماله من المستوى البشري إلى المستوى الملائكي، وإنكار بشريته أمر لم يكن يقرهن عليه سامع، فانبرى الملفوظ (حاشا لله) لتقويته متشحًا بمعنى التعجب والدهشة التي تجعل من إنكار ما لا يُنكر أمرًا مقبولاً مبرّرًا على سبيل المبالغة في خضم هذا الموقف النفسي الانفعالي، ومما تجدر ملاحظته أن الملفوظ (حاشا لله) تزامن مع السلوك الحركي (قطعن أيديهن) الذي اضطلع بدوره بتقوية القوة الإنجازية من خلال إزجائه لمعنى الانبهار المفهوم من فقدانهن الانتباه والتركيز على الموضع الصحيح للسكين، وهذا ديدن الحوار القرآني تحتشد فيه وسائل التقوية وتتآزر معًا، وإن كان بعضها أكثر بروزًا وهيمنة على الآخر، ويمكن تصور فقدان هذه التقوية التآزرية للمنطوقات لو أن جوابهن جاء غُفلاً من الإشارة إلى السلوك الحركي ومن الملفوظ (حاشا لله).

وعلى حين كانت (حاشا لله) في الموضع السابق تكافئ في معناها الملفوظ التنزيهي (سبحان الله) إذا قيل في السياق الانفعالي التعجبي، وردت في الموضع الثاني (الآية ٥١) مكافئة لـ (معاذَ الله)؛ إذ يشير السياق إلى أن المقصود من

---

(١) الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح الرضي على الكافية، تحقيق: يوسف حسن عمر، ط٢، جامعة قاريونس: بنغازي، ١٩٩٦م، 2/ 124.

(٢) صولة، عبدالله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط٢، دار الفارابي: بيروت، ٢٠٠٧م، ص٩٦.

جوابهن هو دفع التهمة والعيب عن يوسف عليه السلام، وهو ما يوجه الملفوظ (حاشا لله) إلى تقوية القوة الإنجازية لهذه التبرئة التي عبرن عنها بالفعل العرفاني المنفي (ما علمنا) المسند إلى ضمير المتكلمين لتقوية التبرئة بالإجماع، والمجرور مفعوله بـ(مِن) الزائدة لتقوية الشمول والاستغراق.

يتضح مما سبق أن الملفوظ (حاشا لله) يساق من أجل قضية ينافح عنها المتكلم، ومن ثم يأتي متسقًا في قوته الإنجازية التعزيزية مع الموقف الذي يعبر عنه المتكلم، ففي حين يُصنف ضمن الأفعال الكلامية التعبيرية في الموضع الأول لتعزيز القوة الإنجازية المستلزمة (المبالغة والتعجب)، يصنف ضمن الإيقاعيات في الموضع الثاني لتعزيز القوة الإنجازية المستلزمة (تبرئة) يوسف عليه السلام مما رُمي به، فقولهن (ما علمنا عليه من سوء) بمثابة الإدلاء بالشهادة على براءته، ولاسيما أنها صدرت من خصم، وبمجرد تصدير هذه الشهادة بالملفوظ (حاشا لله) فقد وقر في نفوس السامعين إنكار التهمة، وتبادر إلى أذهانهم التأكيد والمبالغة في تبرئة يوسف قبل إتمام الكلام.

وتبدو خصوصية هذا الملفوظ بوصفه معززًا للقوة الإنجازية في الحوار القرآني في أنه لم يرد في التنزيل إلا لامتداح يوسف عليه السلام وتبرئته، ومما تجدر ملاحظته أن الملفوظ الآخر (معاذ الله) المرادف له في البنية التركيبية والشروط التداولية للاستعمال لم يرد أيضًا في الحوار القرآني إلا في السورة نفسها بيد أنه كان على لسان يوسف نفسه هذه المرة في موضعين اثنين كذلك، الموضع الأول كان في مقام رفضه الفاحشة، والموضع الثاني كان في مقام رفضه الظلم:

-﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣).

-﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾

(يوسف: ٧٨ – ٧٩).

يحمل الملفوظ (معاذ الله) معاني الاستعاذة بالله والاعتصام به واللجوء إليه كما تشير إليه بنيته اللغوية التركيبية، كما أنه يقتضي مستعاذًا منه (قضية مرفوضة) مصرحًا به أو ضمنيًّا، وروده في الآيات السابقة تاليًا للطلب (هيت لك) و(فخذ أحدنا مكانه) يستلزم ضمنًا رفض تلك المطالب، فمقتضاه المعجمي يحمل بعدًا حجاجيًّا يتمثل في أن الاستعاذة لا تكون إلا من الأمر الشنيع القبيح، مما يجعل منه ملفوظًا ذا خصائص تقويمية أخلاقية تعبر عن موقف المتكلم من القضية (الطلب)، وتسعى إلى تقوية الفعل الإنجازي التأثيري المقصود وهو النهي عن تلك المطالب وتوجيه المتلقي إلى تركها أو صرفه عنها لقبحها، فثمة ضمني قار في الملفوظ يستوجب من المتلقي الإذعان له يتمثل في أن المستعاذ منه قبيح، وضمني ديناميكي يستوجب البحث عنه واستنتاجه – في حال عدم ذكره– يتمثل في العلة والسبب الذي من أجله أوقع فعل الاستعاذة.

وينطوي الملفوظ (معاذ الله) في إجابات يوسف عليه السلام على دعوى تحتاج إلى أدلة إزاء حكمها الابتدائي القيمي الصارم المستمد من معجمها الديني، ومن ثم تظهر قيمته التعزيزية في تقديمه للحجج التي تستدعي القيم والفضائل، ففي الموضع الأول قدم يوسف حجته التعليلية (إنه ربي أحسن مثواي) التي شكلت في ظاهرها خرقًا لقاعدة من قواعد الحوار (الصلة والمناسبة) القائمة على مبدأ التعاون بين طرفي الحوار، فامرأة العزيز تدعوه إلى الفاحشة وهو يجيب بأن سيده العزيز (زوجها) قد أكرمه وأحسن مثواه، وهي إجابة لا تبدو ذات صلة بالطلب ولا بالاستعاذة منه، وهو ما يقود إلى البحث عن الضمني، ويؤول بالحوار إلى استلزام تخاطبي مفاده أن استجابته لمطلبها فيه خيانة قبيحة للرجل صاحب الفضل عليه،

يندرج بها في زمرة الظالمين، وتستوجب الاستعاذة (معاذ الله) التي تصدرت النص الحواري وكانت فاتحةً لسلسلة حجاجية، ومعززةً لنتيجة ضمنية ملزمة هي المقصود والغرض من الرد كله: أقلعي عن هذا الطلب القبيح، مما يجعل الملفوظ (معاذ الله) جديرًا بأن يُدرج ضمن الشارات الحجاجية التوكيدية التي وصفها صولة بأنها "تستدعي الضمني وتفتح عليه وتومئ إلى النتيجة وتدفع إلى استنتاجها"[1]، وتزيد درجة القوة الإنجازية للمنطوقات ومقاصدها الإقناعية، ولاسيما أن الملفوظ (معاذ الله) الذي تصدر النص الحواري منفلت الصلة – على المستوى التركيبي– مما بعده، مما يجعل إقحامه عدولا بالزيادة لمغزى تأكيدي تعزيزي حجاجي.

وعلى حين كان المستعاذ منه ضمنيًّا في الموضع الأول، أعرض يوسف عن ذكره تأدبًا وترفعًا، جاء مصرحًا به في الموضع الثاني: (أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) بوصفه حجة قانونية قضائية تسوغ رفض الطلب من قبل السُّلطة، وابتدار الجواب بـ(معاذ الله) فيه تقوية وتأكيد على مضمون المستعاذ منه من جهة، وتعزيز للقوة الإنجازية للمنطوق (إنا إذًا لظالمون) من جهة ثانية، بوصفه نتيجة افتراضية لمقدمة افتراضية مضادة مفهومة من الحجة المذكورة:

– مطلبنا أَخْذ المتهم (من وجدنا متاعنا عنده) – حجة مذكورة مبيِّنة لفعل الاستعاذة.

– مطلبكم أخذ البريء – مقدمة مضادة مضمرة.

– أخذ البريء ظلم – قانون العبور أو المبدأ الحجاجي المسلَّم به.

– إذن نحن ظالمون (على فرض تنفيذ طلبكم) – نتيجة افتراضية مصرح بها

والنتيجة النهائية المطوية المقصودة: طلبكم مرفوض دفعًا للظلم، وهو ما عززه فعل الاستعاذة بدءًا وسعى إليه؛ إذ درج الاستعمال التخاطبي للملفوظ (معاذ الله) في رد المتلقي على أن ينبري لصد الفكرة المطروحة من قبل المتكلم أو

(١) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص ٢٦٠.

رفضها أو استبعادها، وأن يلزِم في الآن نفسه – متوسلاً بمقتضاه المعجمي الديني المقدس– بالاستجابة والانقياد منذ لحظة التلفظ به.

ب– وسائل معجمية فعلية:

– النواسخ الفعلية الجهية:

يشير مصطلح (الجهية) (Modality) إلى "موقف المتكلم إزاء مخاطبه، وإزاء نفسه وملفوظه الخاص"(١)، وتندرج ضمن الأفعال الجهية أفعال القلوب التي منها: (ظن) و(علم)، وتصنف ضمن الجهات الذاتية المعرفية التي "يعبر بها المتكلم عن درجة الاعتقاد الذي يعتنقه، وهو درجة على سلّمية الوثوق أو اليقين"(٢) مما يعكس دورها في تعديل القوة الإنجازية للأفعال الكلامية.

ومن مجيء هذه الأفعال في الحوار القرآني:

-﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (الإسراء: ١٠١– ١٠٢).

-﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (هود: ٧٨ – ٧٩).

-﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦٢ – ٦٥).

---

(١) شارودو، باتريك، ومنغو، دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبدالقادر المهيري، وحمادي صمود، دار سيناترا: تونس، ٢٠٠٨م، ص ٣٧٢.

(٢) العامري، محمود عباس، الجهات في المنطق واللسانيات، ط١، الدار التونسية للكتاب: تونس، ٢٠١٦م، ص١٥٧.

من المستقر عليه في المدونات النحوية التراثية أن الأصل في دلالة (ظن) هو الرجحان، أي رجحان الخبر (المفعول الثاني)، فهي تعبر عن الاعتقاد الراجح غير الجازم لانعدام الدليل؛ ولذلك تعد من المضعفات للقوة الإنجازية، غير أنها قد تدل على اليقين أو ما يقترب منه بحسب السياقات المقامية، أو قد تقترب من اليقين بحسب ما يحيط بها من مقويات لفظية ومقامية معًا كما في آية الإسراء (١٠١)، فقد وردت (ظن) في خطاب فرعون مقترنة بلام الابتداء المؤكِّدة، ومسبوقة بالحرف الناسخ المؤكِّد (إنّ)، وموقف فرعون هو موقف التكذيب والكفر والإصرار على موقف العصيان، ومحاولة التمويه على الناس لتصديق تهمة السحر التي اتهم بها موسى عليه السلام، فليس من مقاصد هذا المقام إذن إضعاف القوة الإنجازية، فالاعتقاد الراجح المؤكد هنا يتموضع في أعلى درجات السلمية الممتدة بين الظن واليقين، وكون فرعون كاذبًا في اعتقاده لا ينقض تقويته لخطابه من حيث هو كلام منجز، له فعله الإنجازي التأثيري التضليلي على السامعين، فالملفوظ الجهي (أظنك) يحمل – أمام الملأ– طاقة حجاجية تعزيزية تستمد قوتها من كونها موقفًا اعتقاديًّا نابعًا من السُّلطة الفرعونية الطاغية التي دأبت على أن تقول للناس: (ما أريكم إلا ما أرى)، فلسان حال فرعون: هذا ظني القوي في موسى وليس لكم أن تظنوا غير ما تظنه السُّلطة.

وأما من حيث هو حجة قرآنية فقد جاء الخطاب لتسلية النبي ﷺ وتقوية عزيمته، ذلك أن تكذيب الكفار له ورميه بالسحر رغم الآيات البينات التي جاء بها لم يكن بدعًا من الأمر، فإن موسى جاء بتسع آيات بينات لا ينكرها ذو عقل، فما كان من فرعون إلا أن قال: (وإني لأظنك يا موسى مسحورا) رغم يقينه من صدق موسى، ولِعلم موسى بهذا اليقين قارعه بالفعل القلبي (لقد عملتَ..) وهو ذو دلالة جهية يقينية فاضحة للاعتقاد الحقيقي للمخاطَب وموقفه من القضية، وقد تسلط هذا الفعل على ما وقع في حيزه وهو القصر المفيد للتوكيد، والتوكيد بالقصر قوة

إنجازية ذات طاقة حجاجية من شأنها أن "تقصي جميع المفاهيم المخالفة التي يمكن أن تدور بخلد الخصوم"(١)، ومن ثم فالفعل الجهي (علمتَ) يمثل تعزيزًا مكثفًا للقوة الإنجازية التي تؤكد:

– عِلم فرعون بأن المجيء بهذه الآيات التسع أمر يفوق القدرة البشرية، ومن ثم فموقفه يخالف ما استقر في العقل من أن وقوع ما لا يقدر عليه البشر معجزة تستحق التأمل والتفكر لا التذرع بالخزعبلات والتعليلات الساذجة، فهو تعزيز حجاجي يقتحم الموقف الاعتقادي الحقيقي للمخاطَب ويعريه، مما يصعب معه دحضه، فمجابهة موسى لفرعون بما استقر في علمه (لقد علمتَ...) هو اختراق ودحض لمزاعمه.

– كذِب فرعون في ظنه وخرقه لقاعدة من قواعد الحوار (لا تقل ما لا تعتقده)، فنجاح الفعل الكلامي رهين بمدى انسجامه مع الوقائع.

كما أن الفعل (علمتَ) بمقتضاه الجهي يعزز القوة الإنجازية التأثيرية الناتجة ضمنيًّا: الإقناع بصدق موسى عليه السلام وإبطال تهمة السحر، ولاسيما أن الخطاب أحاط هذا الفعل اليقيني بمؤكدات حرفية داعمة، من شأنها أيضًا زيادة درجة القوة الإنجازية وهي لام القسم و(قد) التحقيقية.

ومن هنا كان الملفوظ الجهي (أظنك) الوارد على لسان موسى عليه السلام معززًا للقوة الإنجازية على نحو ناجح لم يبلغه الملفوظ نفسه في عبارة فرعون؛ ذلك أن الحوار السابق المتصدر بـ (لقد علمتَ) المناهض لظن فرعون كان بمثابة المهاد الحجاجي الذي استندت إليه القوة الإنجازية المعزِّزة في (لأظنك)، وفي الوقت نفسه أضعف ذلك الحوارُ الفعلَ الظني في خطاب فرعون المنتهِك لقواعد الحوار وسياق الأحداث ووقائع العالم التي تؤكد صدق النبوة، والإضعاف هنا يعني تقوية الخطاب المضاد.

---

(١) صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص٣٦٨.

وحيث زاد الفعل الجهي (لأظنك) في خطاب موسى السجالي من درجة القوة الإنجازية المستلزمة (التحذير والتخويف من المآل) زاد أيضًا من درجة القوة الإنجازية التأثيرية التي قوضت معتقد فرعون الخاوي من الحجة والدليل، وأحدثت القلق والهلع النفسي من سوء العاقبة، فالمحتوى القضوي لظن فرعون كان مجرد تهمة مضلِّلة ألقاها على عواهنها لغرض الإعنات والإقماع والتعتيم على الحقائق، على حين كان المحتوى القضوي لظن موسى هو المآل المستقبلي المرتقب للخصم، المحتمل الوقوع، وهو ما يزعزِع الطمأنينة في نفس هذا الخصم، ويقذف الخوف ويدعوه إلى التفكر والارعواء عن الباطل قبل تحقق مضامين الظن.

وفي آية (٧٩) من سورة هود يرد الملفوظ الجهي المعرفي نفسه (علمتَ) في الخطاب المناهض للنبوة (على لسان قوم لوط) لتعزيز القوةِ الإنجازيةِ الحرفية (النفي) – باعتبار (ما) في قولهم (ما لنا في بناتك من حق) نافية لا موصولة– والقوةِ المستلزمةِ وهي رفض عرض لوط والإنكار عليه، فتصدير جوابهم بـ(لقد علمتَ) يحيل إلى يقين سابق بسلوكاتهم الماضية وطبعهم المنتكس الذي عهده لوط فيهم وهو عدم رغبتهم في النساء، ومن ثم فترغيبهم فيهن من قبل لوط هو مناورة فاشلة لا جدوى منها وغير مبرّرة من منظورهم؛ لأنها تخالف هذا اليقين المستقر عنده، فكيف يَطلب منهم نقيض ما علمه واستيقنه فيهم؟! فالملفوظ (علمتَ) بمثابة المؤكِّد لقوة النفي وما تسلط عليه من مضامين، وهو ما يجعله مقويًّا لدرجة القوة الإنجازية من جانبين: الجانب الجهي المعرفي الاعتقادي المعبر عن اليقين، والجانب المظهري المعبر عن الزمن الماضي أو الواجب (المتحقق).

يضاف إلى ذلك أن إسناد الفعل الجهي (علمَ) إلى ضمير الفاعل المخاطَب من شأنه أن ينقل محتوى الالتزام من المتكلم إلى المخاطب، ويشركه في وجهة نظره ومعتقده، ويجعل القضايا المعروضة في محل اتفاق بين الطرفين، وعند تأمل البنية الإنجازية في خطاب قوم لوط يلاحظ ما يأتي:

– تكرار الفعل الجهي (علم) وهو ما يكثف وظيفة المعزِّز للقوى الإنجازية.

– عزز الفعلُ الجهي (علم) في المرة الأولى فعلَ الجحد (ما لنا حق في بناتك)، ومحتواه القضوي: لا نرغب في النساء، وفي المرة الثانية عزز فعلَ التعويض (ما نريد)، ومحتواه القضوي: نرغب في الرجال.

– جعل من موضوع الجحد والتعويض مسألتين متفقًا عليهما لا ينكرهما لوط عليه السلام، وبذلك نهض الفعل الجهي بوظيفة حجاجية معزِّزة للقوى الإنجازية، اتخذت من معتقد الآخر حجة – وإن كانت مغالِطة– لتبرير المطالب، ووجه مغالطتها أن إثبات اتفاق الآخر ويقينه من صدق القضية المطروحة لا يعني اتفاقه على نزاهتها أو مصادقته على فسادها الأخلاقي.

– تغيير البنية الزمنية من (علمتَ) في المرة الأولى إلى (تعلمُ) في الجملة الثانية المعطوفة فيه تقوية داعمة للفعل الجهي وتأثيره الإنجازي، إذ يؤكد على مطلب صرف ذهن المخاطَب عن القضية الأولى المرفوضة وإقصائها (الرغبة في النساء)، والتركيز على القضية الحالية المطلوب النظر فيها (الرغبة في الرجال).

– تشكلت البنية الحوارية في خطاب قوم لوط من سلسلة متتابعة من المعززات للقوى الإنجازية، وبدا الفعل الجهي (علم) هو المعزز المهيمن على بقية المعززات الداعمة كلام القسم و(قد) التحقيقية و(إنّ) المؤكِّدة.

وعند تأمل البنية الكلية للنص الحواري الذي جرى بين لوط وقومه يتضح أنها تنجز ثنائية ضدية طرفها الأول موضوعه الدعوة إلى الطهر والنهي عن الخزي والعهر، وطرفها الثاني موضوعه رفضُ الطهر، والمجاهرةُ بالعهرِ والرغبةِ في الرذيلة، مما يجعل الفعلَ الجهي (علمتَ/ تعلمُ) في حقيقة الأمر دليل إدانة – يقدمه قوم لوط– على عهرهم، فلم يكتفوا بالاعتراف بالفسق والشذوذ حتى دعّموا اعترافهم وعززوه بإثبات يقين خصمهم من هبوطهم الأخلاقي، فجعلوه – من فرط فحشهم– شاهدًا على سلوكهم المنحرف في الوقت الذي يبحث فيه المحاجّ عن حجة له لا عليه.

وفي سورة الأنبياء ورد الفعل الجهي (علمَ) المسند أيضًا إلى تاء الفاعل المخاطَب على لسان قوم إبراهيم عليه السلام بوصفه ردًّا على طلب إبراهيم منهم بأن يوجهوا أسئلتهم إلى الأصنام إن كانت تنطق، فلما سقط في أيديهم وأيقنوا أن وراء طلب إبراهيم (فاسألوهم)- المعلّق بقدرة الأصنام على النطق- مغزى، اعترفوا بأنها لا تنطق مصدرين جوابهم بـ (لقد علمتَ)، وفي حين كانت القوة الإنجازية المستلزمة للفعل الكلامي التوجيهي (فاسألوهم) هي التعجيز والتبكيت والسخرية، ورد الفعل الجهي (علمتَ) لزيادة درجة القوة الإنجازية المستلزمة للنفي (ما هؤلاء ينطقون) التي تشير إلى المقاصد والمعاني الضمنية الآتية:

- الإنكار على إبراهيم عليه السلام والاحتجاج عليه: كيف تطلب منا سؤالهم معلّقًا طلبك بقدرتهم على النطق وقد علمت أنهم لا ينطقون!

- محاولة إثباتهم عِلم إبراهيم بـ (ما هؤلاء ينطقون) يستلزم ثبوت علمه بنتيجة مقصودة أضمروها: إذن لا نستطيع سؤالهم، كما يستلزم إلزام إبراهيم بالإجابة على سؤالهم: مَن فعل هذا بالأصنام؟ فأنت من ينطق لا هم.

- ينطوي احتجاجهم بعلم إبراهيم بعدم قدرة الأصنام على النطق على إعلان العناد والمكابرة، والتبجح بالاعتراف الضمني برضاهم عن سفاهة فعلهم إذ يعبدون ما لا يقدر على النطق والدفاع عن النفس، كما ينطوي على اتهام إبراهيم بالتنصل من جرم تكسير أصنامهم.

إن احتشاد كل هذه القوى الإنجازية المضمرة في حيز الفعل الجهي (علمتَ) يجعل منه معزّزًا لها من حيث دلالته على اليقين المفضي إلى إثبات صحة المحتوى الإنجازي، إضافة إلى إبرازه لها بوصفها معرفة مشتركة بين الطرفين.

وهنا يظهر فرق ما بين استعمال الفعل الجهي (علم) في الحوار القرآني - بوصفه معزّزا لقوة المنطوق الإنجازية- على لسان الأنبياء واستعماله على لسان أقوامهم، ففي حين يستعمله الأنبياء لتقوية الحجة في الدعوة إلى الإيمان بالله

وفضح اعتقادات الخصم وإبطال حججه، يستعمله أقوامهم في فضح أنفسهم وتعرية نواياهم السيئة والاحتجاج للسفاهة والرذيلة.

- لا جرَمَ:

اختلف النحاة في لفظة (لا جرم) فعدها سيبويه فعلاً ماضيًا مركبا من (لا) النافية و(جرم) تركيبَ (خمسةَ عشرَ) بمعنى حَقَّ أو وجبَ أو ثبتَ، والمصدر المؤول بعدها فاعل، وأما الفراء فعدها اسمًا و(لا) نافية للجنس ومعناها: لا بدّ ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة (حقًّا)، وثمة آراء أخرى.(١)

وليس من هدف هذه الدراسة الخوض في خلافات النحاة بشأن تصنيفها النحوي، فسواء كانت فعلًا أم اسمًا فإنها من حيث الدلالة تأتي – حسب ما تورده المدونات التراثية ولاسيما كتب التفسير– في سياق التحقيق ونفي الشك والظن والريبة عن المحتوى القضوي الذي تدخل عليه، ومن حيث سلوكها التركيبي يلاحظ أنها لم تدخل في الخطاب القرآني إلا على (أنّ) ومعموليها، وكذلك في كثير من النصوص النثرية الأخرى والشعرية، مما يجعلها قريبة الشبه بأفعال الجهة المعرفية تركيبًا ودلالة.

وقد وردت في الخطاب القرآني في خمسة مواضع تتحدث كلها عن الكفار ومآلهم، وما يهمّ هنا هو مجيئها في السياق الحواري الآتي: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ (غافر: ٤١ – ٤٣)، يجري في هذه الآيات حوار بين مؤمن آل فرعون وكفارهم، موضوعه إبراز المفارقة بين مضمون دعوته لهم (الإيمان بالله/ النجاة من النار) ومضمون

(١) ينظر: النعيمي، ناصر إبراهيم، (لا جرَمَ) بين النظرية والاستعمال، مجلة دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، المجلد ٤٣، العدد ٢، ٢٠١٦م، ص ٧٢٨.

دعوتهم له (الشرك بالله/ دخول النار)، ثم يختم المؤمن كلامه بالقول الفصل في موقفه من دعوتهم مصدّرًا هذا الختام بالملفوظ (لا جرمَ أنّ ...)، ليقطع بذلك كل شك وارتياب في صحة ما سيأتي من خطاب واصفٍ تقريري، ومهيِّئًا الأذهان لاستقبال حكم وموقف صارم لا يقبل الجدل والنقاش والتشكيك؛ إذ من المستقر عليه أن الموصول الحرفي (أنّ) يفيد التوكيد والإثبات، الأمر الذي يجعل من (لا جرمَ) ملفوظًا يعزز القوة الإنجازية لـ (أنّ) التي تقع في حيزه، ويضاعف معنى التحقيق والتوكيد، ويدفع بدءًا أي محاولة للشك والارتياب، وقد امتدّ التأثير التعزيزي لهذا الملفوظ في الجمل المعطوفة التي تلته (وأن مردنا إلى الله/ وأن المسرفين هم أصحاب النار) باعتباره مضمرًا في بنية التركيب العطفي، ومن ثم فهو هنا يؤكد ثلاثة مضامين تختزل القضايا الكبرى الأساس التي طالما ناقشها الخطاب القرآني في حواراته مع أهل الشرك: بطلان عبادة الأوثان، المعاد والرجوع إلى الله (البعث)، مآل أهل الشرك ودخولهم النار، وهي في حقيقة الأمر حجج قدمها مؤمن آل فرعون ليعلل بها رفضه لدعوتهم، والملفوظ الجهي (لا جرم) يدعم هذه الحجج ويقوّي فعاليتها الإنجازية التأثيرية المقصودة: الإقناع ببطلان دعوتهم، وصرفهم عنها.

– النواسخ الفعلية المظهرية:

يطلق مصطلح المظهرية (Aspectuality) على "وجهة نظر المتكلم وكيفية تمثله للأوضاع في جريانها عبر الزمان"[(١)]، فالمظهرية مقولة دلالية تتعلق بالبنية الزمانية الداخلية للأحداث، ويرى المسعودي أن ما سماه (النواسخ الفعلية المظهرية) تمثل أبرز نقاط التقاطع بين الجهية والمظهرية، فهذه النواسخ يمكن أن تعد موجهات زمانية إذا نُظر إليها من زاوية تعبير المتكلم عن مواقفه من القضية،

(١) المسعودي، عبد العزيز، المعاني الجهية والمظهرية: بحث لساني في المقُوَلة الدلالية، جامعة سوسة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية: تونس، ٢٠١٣م، ص١٨٦.

ويمكن أن تعد مظهرات إذا نُظر إليها من زاوية تمثيل المتكلم للبنية الزمانية الداخلية للأحداث.(١)

يستعمل المتكلم بعض النواسخ الفعلية المظهرية مثل (كان وأخوتها) لزيادة درجة القوة الإنجازية من خلال ما تعكسه عن وجهة نظره أو موقفه تجاه محتوى كلامه أو تجاه المخاطب أو مدى التزامه بالقضية التي يعبر عنها المنطوق، ومن خلال ما تعكسه بنيتها الزمانية بشأن تأكيد وقوع المحتوى القضوي المعبر عنه وتحقيقه، وستركز هذه الدراسة على الفعلين (ما دام) و(ما فتئ) اللذين وردا في الحوار القرآني الآتي على ألسنة الأنبياء وذويهم:

-﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم: ٣٠ – ٣١).

-﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ (يوسف: ٨٤ – ٨٥).

يعبر الفعل الناسخ (ما دام) عن استمرارية الحدث الذي يتقدمها بوصف (ما) ظرفية توقيتية لما قبلها، ويمثل خبره قيدًا لهذا التوقيت يُلزم أو يلتزم به المتكلم، فقوله (ما دمت حيا) فيه تعزيز لقوة المنطوق الإنجازية بإقامة الصلاة والزكاة، فهي إقامة دائمة دوام الحياة، فالقوة الإنجازية المستلزمة وهي الأمر المفهوم من قوله (وأوصاني) مشروطة بالديمومة المؤبدة، وهو تأبيد مفهوم من التأطير الذي اضطلع به خبر الناسخ (حيًّا).

وقد تكون ديمومة غير مؤبدة فتحدّ الحدث المظروف بغاية أو مدى يقف عنده كما في قوله تعالى :﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ﴾ (المائدة: ٢٤)،

(١) ينظر: المرجع السابق، ص١٢.

فعلقوا دخولهم الأرض المقدسة بخروج الجبابرة منها، وهذا التشارط التوقيتي الذي تنهض به (ما دام) يصنع موقفًا يوجب على المتكلم الوقوف عنده والعمل به، كما أن (ما دام) يفترض أن تعزز القوة الإنجازية الحجاجية هنا لكونها تقدم حجة لتقوية المنطوق الإنجازي (لن ندخلها)، غير أن قولهم (ما داموا فيها) يقدم في الواقع حجة سببية عنادية مغالطة؛ لأنهم وُعدوا بالنصر والغلبة على الجبابرة ساعة دخولهم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾ (المائدة: ٢٣)، لكنهم عادوا وأصروا على عدم الدخول لوجود الجبابرة، فجعلوا ما ليس بعلة علة.

أما الفعل (ما فتئ) فدلالته المظهرية هي الاستمرار أو دوام اتصاف الاسم بالخبر كما تشير المدونات النحوية التراثية، وخصوصية السياق تبين ما إذا كان الاستمرار إلى وقت التكلم أم يمتد إلى المستقبل كما في آية (٨٥) من سورة يوسف، فأبناء يعقوب لم يقصدوا مجرد الإخبار عنه بأنه مستمر في ذكر يوسف، بل قصدوا أنه سيستمر بدليل تغيية الحدث (تذكرُ) بالأداة المستقبلية (حتى) التي أدمجت الغاية في البنية الزمنية المظهرية لـ(تفتأ)، ثم إن الغاية هنا مؤطرة بما يشير إلى الأبدية (أو تكون من الهالكين) باعتبار أن الهلاك هنا المقصود به الموت، وهو تأطير يقع ضمن سلمية حجاجية بدأت بالحجة الأدنى وهي المشارفة على الهلاك (حرضًا) وانتهت بالحجة الأعلى وهي الهلاك (الموت)، وهذا ادعاء منهم وتبيان لوجهة نظر إنكارية اعتراضية ترى أن استمرار ذكره ليوسف وتأسفه عليه سيؤدي به إلى الهلاك، وعلى الرغم من تدعيم خطابهم بعدد من الأساليب التعزيزية للقوة الإنجازية كالقسم (تالله) وأداة الغاية، غير أن الفعل المظهري (تفتأ) اتخذ الدور المحوري المهيمن في التقوية التي انعكست على الفعل الإنجازي التأثيري أيضًا من خلال الإيماء إلى النتيجة المضمرة وهي توجيه يعقوب إلى

الكف عن ذكر يوسف، فجاؤوا بما يدل على (الاستمرار) المفضي إلى الهلاك لحمله على النقيض وهو التوقف عن هذا السلوك.

ومما يجدر ذكره أن الفعل المظهري (ما فتئ) لم يرد في الخطاب القرآني إلا في الموضع السابق فحسب على لسان أبناء يعقوب، وهو أقل استعمالاً في الكلام من الأفعال الناسخة الأخرى التي يندرج في زمرتها (أفعال الاستمرار المشروطة بتقدم أداة نفي)، وقد فطن البلاغيون إلى أن اختيار هذا الفعل الذي هو الأغرب من بين إخوته قد ناسب اختيار أغرب ألفاظ القسم أيضًا (تالله)، وأغرب الألفاظ الدالة على الهلاك وهي لفظة (حرضًا)، وعدوه من قبيل ائتلاف اللفظ أو "ملاءمة الغريب للغريب"[1]، وهو في الواقع اختيار الأقوى للأقوى لتعزيز القوة الإنجازية، وتكثيف الحمولة الحجاجية للأفعال الكلامية.

**

(١) ابن أبي الإصبع المصري، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس لأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث: القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٩٥.

الخاتمة

إن من أخص سمات الخطاب القرآني أنه خطاب حواري حجاجي، يخاطب العقل ويستحث الفكر، ويدعو إلى التدبر، وهو إذ ينتهج ذلك يصنع معجمه بإحكام، وينتقي مفرداته بما يحقق هدفه الأسمى، ويسرد الأقوال المحكية بكل ما يحيط بها من مؤشرات لفظية وغير لفظية، وقد سعت هذه الدراسة إلى سبر بعض وسائله اللغوية المعجمية وغير اللغوية التي توخاها لتقوية أفعال الكلام وتعزيز قوتها الإنجازية، وكان من جملة ما خلصت إليه من نتائج:

– أشار الحوار القرآني عبر الأقوال المحكية إلى الوسائل غير اللغوية (الإشارات والسلوكات الحركية) المصاحبة للأفعال الكلامية، ووظفها لتعزيز القوة الإنجازية، وقد بينت الدراسة أثرها في التفاعل الخطابي بين أطراف الحوار، ودورها في تدعيم الموقف الاتصالي اللغوي المصاحبة له، وإبراز المحتوى وفهمه وتأويله وفق اعتقاد المتكلم، بما يعزز معاني الاعتراض والرفض أو الانفعال أو التأكيد، أو اليقين أو حتى التضليل.

– رصدت الدراسة استعمال الخطاب القرآني الحواري لبعض الوسائل المعجمية الاسمية والفعلية التي نهضت بدور بارز في زيادة شدة قوة المنطوق الإنجازية الحرفية أو المستلزمة الثاوية خلف الملفوظ.

– ينتقي الحوار القرآني من تلك الوسائل المعجمية ما يضطلع بمضاعفة القوة الإنجازية الحجاجية للأفعال الكلامية، فتعزيز القوة الإنجازية للملفوظ انعكست على تقوية الفعل التأثيري الحجاجي، وتلك الوسائل إذ تنهض بذلك تستثمر مقتضاها المعجمي وخصائصها التقويمية إضافة إلى سماتها الجهية والمظهرية، وهي ترد في الحوار بوصفها في غالب الأمر عدولاً بالزيادة لمغزى تأكيدي إقناعي، إضافة إلى تعزيزها لموقف المتكلم تجاه محتوى كلامه أو تجاه المخاطب.

– إن تعزيز القوة الإنجازية للمنطوقات كان رهين السياقات المقالية والمقامية، ونتاج المقاصد والغايات التبليغية، والعلاقات التي تربط بين المتخاطبين، والمعارف والمعتقدات المشتركة بينهم.

– قد ينتج الحوار متوالية من المعززات المتآزرة التي تتعاضد في تدعيم محتوى الخطاب وتقوي إنجازية الملفوظات، ولكن يبقى ثمة معزز مهيمن من بينها، ينهض بدور بارز في صناعة الحجة وتأكيد المواقف والمعتقدات وترسيخ الفكرة في ذهن المتلقي.

**

المصادر والمراجع

- الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح الرضي على الكافية، تحقيق: يوسف حسن عمر،ط٢، جامعة قاريونس: بنغازي، ١٩٩٦م.
- ابن أبي الإصبع المصري، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس لأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث: القاهرة، ١٩٩٥م.
- أوستين، جون لانكشو، نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينيني، ط٢، أفريقيا الشرق: المغرب، ٢٠٠٨م.
- بازي، محمد، البنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب، ط١، كنوز المعرفة: عمّان، ٢٠١٥م.
- أبو راس، محمد أمحمد، اختلاف النحاة في "حاشا" التنزيهية بين الاسمية والفعلية: استعراض المذاهب وأدلتها، مجلة التربوي، العدد٤، جامعة المرقب، كلية التربية، ليبيا، ٢٠١٤م.
- روبول، آن، وموشلار، جاك، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ت: سيف الدين دغفوس، ط١، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ٢٠٠٣م.
- شارودو، باتريك، ومنغو، دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبدالقادر المهيري، وحمادي صمود، دار سيناترا: تونس، ٢٠٠٨م.
- الصراف، علي محمود حجي، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة: دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط٢، مكتبة الآداب: القاهرة، ٢٠١٤م.
- صولة، عبدالله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط٢، دار الفارابي: بيروت، ٢٠٠٧م.
- العامري، محمود عباس، الجهات في المنطق واللسانيات، ط١، الدار التونسية للكتاب: تونس، ٢٠١٦م.

- عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط٣، المركز الثقافي العربي: المغرب، ٢٠٢١م.
- العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، ط١، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي: القاهرة، ٢٠٠٥م.
- العزاوي، أبو بكر، الحجاج ومعنى الحجاجي، ضمن كتاب "التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه"، تنسيق: حمو النقاري، ط١، كلية الآداب والعلوم الإنسانية: الرباط، مطبعة النجاح الجديدة: الدار البيضاء.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي، تفسير القرآن العظيم، ط١، مؤسسة الرسالة: بيروت،٢٠٠١م.
- المتوكل، أحمد، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، ط١، منشورات كلية الآداب: الرباط، ١٩٩٣م.
- المسعودي، عبد العزيز، المعاني الجهية والمظهرية: بحث لساني في المقْوَلة الدلالية، جامعة سوسة: تونس، ٢٠١٣م.
- الناجح، عز الدين، الحجاج في الخطاب القانوني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية: تونس، ٢٠١٢م.
- النعيمي، ناصر إبراهيم، (لا جرَمَ) بين النظرية والاستعمال، مجلة دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، المجلد ٤٣، العدد ٢، ٢٠١٦م.

***